الأثر القرآنيّ في النثر الأندلسيّ عند ابن خاقان في كتابيه (قلائد العقيان ومطمح الأنفس)

Quranic Influence on the Andalusian Prose at Ibn Khaqan's books (Qalayid Al-Oqian and Matmah Al'anfus)

عمر صالح صقر شقيرات*

الملخّص

تسعى هذه الدراسة لتقديم أنموذج لتأثر الكتّاب الأندلسيين بالقرآن الكريم، وتحديدًا عند ابن خاقان الذي نوّع في توظيفه القرآن الكريم من خلال إيراد الآيات بأكملها في عدد من المواضع، أو إيراد جزء من الآية، وتوظيفه المعنى المستفاد من الآيات، وأورد نصوصًا لمن ترجم لهم في النثر والشعر التي بيّن فيها تأثرهم بالقرآن الكريم، من شتّى طبقات المجتمع الأندلسي من (ملوك، وأمراء، ووزراء، وأدباء، وعلماء، وفقهاء)، وما ورد على لسانهم من خطب ورسائل وشعر ونثر، وتناول ابن خاقان مواضيع متعددة، وأكدها عبر آيات القرآن الكريم، فأورد آيات تتحدث عن يوم القيامة، وأخرى تتحدث عن القصص القرآني، وغيرها تناولت (النصح، والإرشاد، والتحذير، والوعيد من عدم الطاعة والتمرد على السلطان)، واستقصى الباحث الآيات التي اهتمت بتحذير ولي الأمر من الإسراف والتبذير في أموال الدولة، وبحث عن الآيات التي اهتمت بعدم التعدي على أملاك الغير حتى لو كانوا من أهل السلطان، ومواقف أخرى في حسن التخلص، ووظف القصص القرآني في مواقف حياة الشخصيات المترجم لها ذات الموضوعات المتعددة في المجتمع الأندلسي، فأورد معاني قرآنية أسقطها على مواقف من حياة المترجم له مثل تقلب الزمان على ذوي السلطان .

الكلمات المفتاحيّة : القرآن الكريم، الأندلس، ابن خاقان، كتابا (قلائد العقيان ومطمح الأنفس)، النثر الأندلسيّ.

Abstract

This study seeks to represent a model through affecting Andalusians writers in the Holy Quran, via Ibn Khaqan who diversified in the Holy Quran by employing whole verses in some of the subjects, and he repeated that through employing part of a verse. He also repeated this employment by mentioning learned meaning from verses, Furthermore, he adduced texts for whom he translated for in prose and poetry where he showed how they were affected by the Holy Quran, from different strata of the Andalusia society (kings, princes, ministers, men of letters, scientists, and jurists), alongside with their own speeches, poems and prose. Ibn Khaqan addressed many subjects which were confirmed by Quranic verses, so he mentioned verses talking about (Judgment day (Doomsday), Quran stories, advice, guidance, warning, and threat of disobedience and rebellion against the Sultan). The researcher traced verses which focused on warning guardian from squandering state funds, he also searched for verses which focused on not exceeding others properties even if they were Sultan's own family besides employing Qur'anic narratives in the life situations of the personalities who were translated for with multiple themes in the Andalusian society.

.

Key Words: Noble Qur'an, Andalusia, Ibn Khagan, Qalayid Al-Oqian and Matmah Al'anfus books, Andalusian prose

* مديرية تربية إربد الأولى، وزارة التربية والتعليم ، تاريخ استلام البحث 2021/01/18، تاريخ قبوله 2021/03/14.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.01

المقدمة

تحاول هذه الدراسة بيان تأثر ابن خاقان بالقرآن الكريم في كتاباته النثرية التي تطرقت إلى عديد من الموضوعات، منها السياسية، والاجتماعية، والدينية، وقد اقتبس من القرآن الكريم آياته الكرام في محاولة لإيصال الفكرة وتثبيتها في ذهن القارئ، وسيحاول الباحث بيان مدى تأثر ابن خاقان في كتابيه (قلائد العقيان ومطمح الأنفس) بالقرآن الكريم، وإلى أي حد كان أسلوبه مقنعًا في هذا التوظيف، وقد استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي؛ لبيان مدى هذا التأثير، وقد قسم الباحث هذه الدراسة إلى ثلاثة محاور يسبقها تمهيد، حيث عالج في التمهيد مسألة تكوّن ثقافة الأديب الأندلسي، وتطرّق الباحث في المحور الأول للحديث عن توظيف ابن خاقان لجزءٍ من الآية؛ لإيصال الفكرة وتوضيح المعنى، أما في المحور الثاني فقد درس الباحث أسلوب ابن خاقان في توظيفه لآيات الذكر الحكيم كاملة غير مجزوءةٍ، وأثرها في معالجته لمواضيع متعددة (كالسياسية، والاجتماعية، والدينية)، وتناول الباحث في المحور الثالث توظيف المعنى القرآني في معالجته لكثير من الحوادث، والتعبير عن كثير من الشخصيات السياسية، والدينية، والثقافية، وأتبعها الباحث بخاتمة وضع فيها ما توصل إليه في بحثه، وقد أفاد الباحث من مصادر قديمة وحديثة؛ للتدليل على مدى تأثر ابن خاقان بالقرآن الكريم، وفنيته في الوصول للفكرة من خلال هذا التوظيف المتنوع .

تمهيد

تكون ثقافة الأديب الأندلسي

يعدّ النثر الأندلسي نتيجة من نتائج الثقافة العالية التي وصل إليها الأديب الأندلسي في القرن الخامس الهجري، إذ انتشرت الرسائل والمخاطبات في المجتمع بين الأدباء، والفقهاء، والوزراء في أمور حياتهم المتباينة، وقد وصف ابن بسام هذا النثر أنه" نثر لو رآه البديع لنسي اسمه، أو اجتلاه ابن هلال لولاّه حكمه" [1] وقد أثّر المجتمع الأندلسي في تكوين هذه الثقافة العالية"، فسكّان أيبيريا مزيج معقد من عناصر جنسية كثيرة، إذ نزلها قديمًا قبائل من بلاد الغال في الشمال، ثم نزلتها عناصر فينيقية ويونانية وقرطاجنية ورومانية وجرمانية، ونزلها كثيرون من اليهود، ثم نزلها بعد الفتح العرب والبربر، وجلب إليها حكّام الدولة الأموية كثيرين من الصقالبة المنتمين إلى شرقي أوروبا وفرنسا وألمانيا"[2]، فمن خلال هذا المجتمع الممتزج تولد لدينا منارة تضاهي المنارة التي كانت في المشرق (بغداد)، ولتقدّم الحضارة الأندلسية أسباب (سياسية، ودينية، وحضارية، وطبيعية) من خلال جغرافية الأندلس الرائعة الذي أدى بالحكام الأمويين التفنن في العمارة، وبناء الأبنية والمساجد المزخرفة، بل المدن، مثل مدينتي الزهراء والزاهرة[3]، وعمّت الحضارة لتحيط بكل أنواع العلوم (الدينية، والأدبية، والرياضية، والطبية)، وكان أكثره في القرن الخامس الهجري، فبزغ نور كثير من العلماء في تلك البلاد[4]، وتكون النثر الأندلسي في حضن هذه الظروف الحضارية، فقد" كان نشوء الدولة الإسلامية في الأندلس واختلاف مهامّها، وتعدد وظائفها السياسية والاجتماعية والإدارية دافعًا قويًا لنشوء فنّ الرسالة؛ ليؤدي هذه

---

[1] ابن بسام الشنتريني، علي بن بسام، (ت542)، **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، 4ج تحقيق إحسان عباس، (د. ط)، دار الثقافة، بيروت، 1997م، القسم1، المجلد1، ص11 .

[2] ضيف، شوقي (ت 2005 م)، **تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات)**، (د. ط)، دار المعارف، القاهرة، ص46

[3] ينظر، المرجع نفسه، ص47- 48 .

[4] فروخ، عمر **(ت1987م)**، **تاريخ الأدب العربي (الأدب في المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى آخر عصر ملوك الطوائف)**، 6أجزاء، ط2، ،دار العلم للملايين، بيروت، 1984م، ج4، ص392-395 .

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

المهام وتلك الوظائف" [5]، وقد كان للقرآن الكريم الأثر الكبير في نضج الرسائل والخطابات الديوانية، فكان التأثير من ناحية الشكل، والمضمون، والبلاغة، حتى صار ذات أهمية كبيرة في تكوين شخصية الأديب الأندلسي؛" كون القرآن جامعًا لكثير من المعنى في قليل من اللفظ وذلك معنى قول رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أوتيت جوامع الكلم" [6]، فسعى الكتّاب الأندلسيون إلى الغوص في معاني كتاب الله وألفاظه؛ لاستكشاف ما فيه من درر كامنة يستغلونها في مكاتباتهم ورسائلهم. وقد وجدت عدة عوامل دعت الكتّاب الأندلسيين لتوظيف القرآن الكريم في مكاتباتهم ورسائلهم، مثل الفواجع والمصائب التي كانت تحل بالأمة الإسلامية عبر الغزو الصليبي، أو الدعوة للجهاد، إضافة للمراسلات التي كانت تجري بين الخليفة وولاته، وبين الخليفة وبين حكام قشتالة ونفار وغيرها من الدول، كذلك الرسائل التي كان أهل العلم يتبادلونها فيما بينهم، ويعد الأدب المنثور وسيلة لحفظ التاريخ وتوثيق أهم الأحداث، إذ إن "علم الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر ومستظرفات الحكايات أنبل علم عندهم، وبه يتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم"[7]، وصار النثر مع التقدم الحضاري في الأندلس مطلبًا شريفًا في الدولة، إذ تمكّن صاحبها من الخوض في كثير من أمور الدولة وتسيير أوضاعها، والخوض في شؤون المجتمع الأندلسي[8]، أما من الناحية الفنية فقد كانت هذه الرسائل تشبه إلى حد بعيد رسائل المشرق العربي أيام الدولة الأموية (كالبساطة، والبعد عن التعقيد، والإيجاز في القول، والقصد في التعبير، والابتعاد عن المحسنات البديعية؛ لأن المشرق هو الأصل في إنتاج هذه الرسائل، ولأن معظم الكتاب في الأندلس من المشرق العربي في الأصل والثقافة، وفي القرن الثالث الهجري تطور أدب الرسائل بتطور الحياة والمجتمع الأندلسي، فتعددت الرسائل الرسمية لتضم مواضيع إدارية، وعسكرية، وسياسية، وظهرت الرسائل الخاصة بين الناس مثل الشكوى والعتاب والذم والشكر، ومالت من الناحية الفنية إلى التأنق والتجميل باستخدام البديع، وكان لأسلوب عبد الحميد الكاتب في كتابة الرسائل أثر في كتابة الرسائل عند الأندلسيين من الناحية الفنية من خلال الإطالة والإكثار من التحميدات في فصول الرسائل، وبلغ الاهتمام في مجال الرسائل أن أفردوا له وزيرًا خاصًا، ونبغت أسر كاملة في مجال الرسائل مثل(بني أمية بن يزيد، وبني الزجالي)، واتسع الاهتمام بالرسائل في القرن الرابع الهجري باتساع رقعة الدولة الأندلسية، وتعدد جوانب الاتصالات خاصة الخارجية، وكانت المراسلات الأدبية وجهًا للدولة، وللمجتمع المحلي، ومن ثمّ كان على الأديب أن يكون ذا ملكة، ومن أهل الثقافة والأدب؛ لذلك أصبح الاهتمام بأدب الرسائل في القرن الرابع الهجري من مهام الخلافة، بل جزءًا منها، وقد تأثروا بكتاب المشرق (كالجاحظ، وابن العميد، وابن المقفع) من الناحية الفنية، وظهر كثير من الموضوعات مثل: (الهجاء، والاستمناح، والطلب، المودة، والصداقة، والرسائل الإخوانية، والعتاب، والاعتذار، والشكوى، والاستعطاف)[9]. أما في القرن الخامس الهجري فقد تطور أدب الرسائل عن ذي قبل لـ(انقسام الأندلس لدويلات صغيرة بعد انهيار الخلافة، وسقوط عدد من المدن الأندلسية في يد الصليبيين، وفساد الأحوال الاجتماعية في الممالك الأندلسية، ونهوض العلوم والآداب على الرغم من التفكك السياسي، وتقريب الملوك والأمراء للكتّاب، والطبيعة الخلابة للأندلس، وظهور الشعراء الجوالين المادحين المتكسبين، وظهور المعارضات بين

---

[5] القيسي، فلاح فايز عبد النبي، **أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري**، ط1، دار البشير، عمان، الأردن، ص88

[6] سلام، محمد زغلول،(ت2013م)، **أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري**، ط1، مكتبة الشباب، المنيرة، ص12.

[7] المقري، أحمد بن محمد، (ت 1041هـ – 1631م)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، 8ج، تحقيق إحسان عباس، (د. ط)، دار صادر، بيروت، 1968م، ج1، ص222 .

[8] ينظر، القيسي، فلاح فايز عبد النبي، **أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري**، ص89 .

[9] ينظر، المرجع نفسه، ص88–139 .

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.01

المتراسلين)، كما تطور أدب الرسائل من الناحية الفنية، حيث أصبحت رسائلهم مثل الشعر المنثور لا ينقصه غير الوزن والقافية[10]

توظيف الموروث الدينيّ

المحور الأول

اقتباس[11] جزء من آية

تنوعت الاقتباسات من القرآن الكريم، فمن هذه الاقتباسات أن يقتبس الأديب الآية كاملة؛ ليعزز موقفه ويدعم رأيه أو أن يأتي بجزء من الآية؛ ليدلّل على ما يريد، وقد استخدم (الفتح بن خاقان)[12] هذا الأسلوب في مؤلفاته (قلائد العقيان ومطمح الأنفس)، فكان استخدامه للنص القرآني والحديث النبوي ذا مغزى؛ لأن "كل حرف من كتاب الله له رسالة يؤديها سواء أكان هذا الحرف منفردًا غير منتظم في جملة كالحروف المقطعة في بدايات السور، أم كان منتظمًا كحروف أي كلمة من كلماته" [13]، واستخدم ابن خاقان التصوير الفني في القرآن الكريم من خلال إيراده آيةً أو جزءًا من آية للتعبير عن الحالات والأوضاع التي عاشها الناس في الأندلس، ومن ترجم لهم؛ لأن "التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني والطبيعة البشرية" [14]. ففي بداية كتابه قلائد العقيان تكلّم ابن خاقان عن وضع الأدب، وما أصابه من امتهان وضياع مستخدمًا جزءًا من الآية فقال: "ولما رأيت عنانه في يد الامتهان وميدانه قد عَطِلَ من الرهان وبواتره قد صدئت في أغمادها، وشعله قد قذيت برمادها... وتلاقيت له نفسا بلغت التراقي" [15]، فالشاهد في قوله بلغت التراقي من خلال قوله تعالى:" كلا إذا بلغت التراقي"[16] في وصف ما آل إليه الأدب من إهمال وانحطاط، فوثب لينقذ ما يمكن إنقاذه، فشبه ما وصل إليه الأدب من عدم اهتمام وإهمال حتى وصل

---

[10] ينظر، المرجع نفسه، ص143-148 .

[11] الاقتباس: تحديث أثر قديم، إما من حيث عرضه بطريقة مشوقة، وإما بتبسيط مفرداته وعباراته ليصبح مألوفا لدى القرّاء، وهو تضمين الكلام نثرًا كان أو نظمًا شيئًا من القرآن أو الحديث، أو من مصطلح العلوم على وجه غير مشروع به، عبد النور، جبور، **المعجم الأدبي**، دار العلم للملايين، ط2، بيروت، 1984م، ص30/ وهو أن تدرج كلمة من القرآن أو آية منه في الكلام تزينًا لنظامه وتفخيمًا لشأنه، وقال الحلبي: هو أن يضمن الكلام شيئًا من القرآن أو الحديث، وقال ابن القيم الجوزية: ويسمى التضمين، وهو أن يأخذ المتكلم كلاماً من كلام غيره ويدرجه في لفظه لتأكيد المعنى الذي جاء به أو ترتيبه، فإن كان كلامًا كثيرا أو بيتًا من الشعر فهو تضمين، وإن كان كلامًا قليلًا أو نصف بيت فهو إيداع، مطلوب، أحمد(ت2018م)، **معجم النقد العربي القديم**، ط1، 2ج، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1989م، ج1، ص204-205.

[12] هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي، ويعرف بابن خاقان، يرد أصله إلى قلعة الولد، وقيل قلعة الولد إحدى قرى يحصب،،أو إلى صخرة الولد، وهي قرية على مقربة من قلعة يحصب من أعمال غرناطة، أحد الوزراء الكتاب المصنفين في الجزيرة الأندلسية، جال في الفنون الأدبية من الشعر والنثر والتاريخ والتراجم ما بين مطول ومختصر، ترجم له الكثير من العلماء، كصاحب النفح وابن سعيد في المغرب، ولسان الدين في الإحاطة، وابن الأبار في معجم أصحاب الصدفي، وابن دحية في المطرب، وياقوت في معجم الأدباء، وابن خلكان في وفيات الأعيان. وكان تاريخ ولادته 480هـ، وقدروا تاريخ وفاته 529هـ بمدينة مراكش، أشار بقتله علي بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين وهو أخو أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي ألف له الفتح كتابه، ومن مصنفاته (قلائد العقيان، ومطمح الأنفس، وكنز الفوائد، وحديقة المآثر)، ابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي، (ت 529هـ)، **قلائد العقيان ومحاسن الأعيان**، 2ج، تحقيق حسين يوسف خريويش، ط1، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن، 1989م، ج1، ص7-10 .

[13] الجيوسي، عبد الله محمد(ت2011م)، **التعبير القرآني والدلالة النفسية**، ط1، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق، 2006، ص239 .

[14] قطب، سيد (ت1966م)، **التصوير الفني في القرآن**، ط16، دار الشروق، القاهرة، 2002م، ص36/ ينظر، الخالدي، صلاح عبد الفتاح، **البيان في إعجاز القرآن**، ط3، دار عمار، عمان، الأردن، 1992م، ص181-220 .

[15] مرجع سابق، ج1، ص44 .

[16] القيامة، آية 26 .

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

إلى درجة الموت عند خروج الروح من الجسد. وجاء في رسالة وجهها أبو محمد بن القاسم الكاتب لأبي النصر: "ورويدك يا أبا النصر؛ فما سميت فتحًا لتفتح علينا أبواب المعجزات، ولا مُلئت سروًا لترتقي علينا إلى الأنجم الزاهرات، فتأتي بها قبيلًا" [17]، فالشاهد في كلمة قبيلًا، وقد استخدمها أبو محمد ليؤكد فكرته من قوله تعالى: "أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ علَيْنا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ باللّهِ والمَلائِكَةِ قَبيلًا"[18] ، فجاء بالمعنى في عدم قدرته على وصف وجلب النجوم والكواكب قبيلًا، فشبّه أبو محمد النجوم التي في السماء بالملائكة الذين يصطفّون يوم القيامة صفًا واحدًا. وقال المعتصم بالله بن صمادح في (أمير الملثمين أمير المسلمين يوسف بن تاشفين) عندما جاء منقذًا للأندلس "حين فغر العدو عليها فمًا، وأرسل دموع أهلها دمًا، وملأ النفوس رعبًا، وأخذ كل سفينة غصبًا" [19] فكان النص القرآني حاضرًا في التحدث عن الملك الظالم الذي كان يستولي على السفن عنوة من أصحابها من خلال قوله تعالى: " أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا" [20]، وأسقطها على الروم المعتدين على الأندلس وأهلها، فصور الروم بالملك الظالم، وصور الأندلس بالسفينة المأخوذة رغمًا، وفي وصف لشأن المأمون بن المعتمد في مواجهته للمرابطين في حصارهم لقرطبة قال: "والمأمون قد أوجس في نفسه خيفة"[21]، فكانت قصة سيدنا موسى – عليه السلام – حاضرة في قوله تعالى: " فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى"[22] عندما ألقى السحرة بالعصي، فخاف سيدنا موسى أن يلتبس على الناس أن ما صنعوه كصنعه، وأنه من جنسه، أو أنه كان حذرًا[23]، وهذا ما كان عليه المأمون من حذر ويقظة من المرابطين، فشبه خوف المأمون بن المعتمد من المرابطين بخوف سيدنا موسى – عليه السلام – يوم واجه السحرة ليناجزهم، وهي صورة نفسية ألمّت بالمأمون، وفي تعريف لابن عمّار قدّمها ابن خاقان، قال: "أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا، ثم كسي به بعد إشراقًا ونورًا، فأصبح راقي منبر وسرير، ولمح ما شاء بطرف غير ضري" [24]، ففي التعريف إشارة للآية الكريمة في قوله تعالى: " هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا" [25]، فهنا توافق بين مضمون الآية التي تتكلم عن الإنسان حين ينسى، وحال ابن عمّار عندما لم يكن له حظوة واهتمام قبل مصاحبته للمعتمد، وأورد أبو بكر بن القصيرة رسالة إلى المنصور بن حماد يذكره بها بموقفه اتجاه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وأنه بموقفه المعادي لأمير المؤمنين ليس على صواب، ومع ذلك يبقي خيطًا رفيعًا من الصلة، حين ذكّره بما كان في السابق من علاقة طيبة بينهما فقال:"وها نحن ننشدك الله الذي لا تقوم السماء والأرض إلا بأمره"[26]، وهنا استحضار لمعنى القوة والجبروت، من قوله تعالى: " وَمِنْ

---

[17] المرجع نفسه ج1، ص379 .

[18] الإسراء، آية92 .

[19] المرجع نفسه، ج1، 70-71 .

[20] الكهف، آية79 .

[21] المرجع نفسه، ج1، ص84 .

[22] طه، آية67 .

[23] ينظر، الموردي، علي بن محمد بن حبيب، (ت450هـ)، **النكت والعيون تفسير الموردي**، 6ج، راجعه وعلق عليه السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، (د. ط)، دار الكتب العلمية ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ج3، ص413 .

[24] مرجع سابق، ج1، ص253 .

[25] الإنسان، آية 1.

[26] المرجع نفسه، ج1- 2، ص310 .

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.01

آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاء وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ" [27]، وورد في ترجمة الوزير الكاتب عبد الملك الخولاني يصف فيها معتقله:

يأوي إليه كل أعور ناعق وتهب فيه كل ريح صرصر [28]

فالشاهد في قوله:(ريح صرصر) التي تتحدث عن قوم عاد ليصف بها السجن الذي اعتقل فيه، فقال تعالى: "وَأَمّا عادٌ فَأُهْلِكوا بِريحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَة" [29] ، وفي البيت الشعري صورة فنية، إذ صور السجن الذي حبس فيه بما فيه من برد وخوف بالريح الصرصر التي هبت على المشركين يوم الخندق واقتلعت خيامهم .

المحور الثاني

الاقتباس اللفظي المباشر (التضمين) لآيات القرآن الكريم

أورد ترجمة للوزير أبي بكر بن قازمان يصف فيها ضيق أخلاقه، وسرعة غضبه، قائلًا: "فإنها كانت تحتدم في جوانحه احتدام القيظ، وتكاد تميز من الغيظ" [30]، فالشاهد أن ابن خاقان اقتبس الآية بنصّها من قوله تعالى واصفًا النار: "تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ كُلَّما أُلقِيَ فيها فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذيرٌ "[31]، فكان وصف أخلاقه الضيقة التي وردت في الترجمة من خلال الوصف القرآني للنار التي يكاد بعضها يأكل بعضًا؛ تعبيرًا عن أخلاقه التي كانت سببًا في شقائه، فصور أخلاقه الحادة بنار جهنم، إذ شخّص الأخلاق بصورة النار التي تحترق، فخرج المعنى من الذهن إلى الحس، وورد في رسالة لابن زيدون لأبي الوليد بن جهور صاحب قرطبة يستعطفه في محنته وهو في السجن، وأنه بريء مما نسب إليه، فكان منه أن اتّجه إلى القصص القرآني ليقوي موقفه، ويعرض حجته أمام أبي الحزم بن جهور فقال في رسالته الجدية: "وقال لي نوح (اركب معنا)، فقلت: (سآوي إلى جبل يعصمني من الماء)، وأمرت ببناء الصرح (لعلي أطّلع إلى إله موسى) [32] ، فالشاهد في الاقتباس القرآني بآيات بأكملها ليوظفها في قضيته للدفاع عن نفسه من خلال قوله تعالى: "وَهِيَ تَجْري بِهِمْ في مَوْجٍ كَالجِبالِ ونادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكانَ فِي مَعْزَلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا ولا تَكُنْ مَعَ الكافِرِينَ" [33]، أما الآية الثانية ففي قوله تعالى: "وقالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّها المَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلى الطِّينِ فَاجْعَلْ لي صَرْحًا لَعَلّي اطَّلِعُ إلى إِلهِ مُوسى وَإِنّي أَظُنُّهُ لَمِنَ الكاذِبينَ"[34]، وفي حضرة الخليفة عبد الرحمن الناصر – للقاضي أبي الحسن منذر بن سعيد يتكلم فيها عن عظمة قرطبة، وأنها من أفضل الممالك، وأن الإسلام في غلبة، والدين في إقبال، قال:" ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، ولن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة تدل على أمور باطنة، دليلها قائم، وجفنها غير نائم" وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم

---

[27] الروم، آية 25

[28] ابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي، (ت529هـ)، **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس**، تحقيق محمد علي شوابكة، ط1، دار عمار ومؤسسة الرسالة، بيروت، 1983م، ص167 .

[29] الحاقة، آية6.

[30] المرجع نفسه، ج1– 2، ص 555 .

[31] الملك، آية 8 .

[32] مرجع سابق، ج1– 2، ص 212 .

[33] هود ، آية 42 .

[34] القصص، آية 38.

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ" [35]. [36]

وفي حادثة أخرى قام الخليفة الناصر بترصيع القبيبة المائلة بالذهب والفضة، وأنكر عليه الإسراف في البناء، فقال له القاضي أبو الحسن سعيد بن منذر: "والله يا أمير المؤمنين ما ظننت أن الشيطان أخزاه الله يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أن تمكنه من قيادتك هذا التمكين مع ما آتاك الله وفضلك على العالمين حتى ينزلك منازل الكافرين.... أليس الله تبارك وتعالى يقول: " وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ" [37] ، قال: وجم الخليفة عبد الرحمن، ونكّس رأسه مليًّا، ودموعه تجري على لحيته خشوعًا لله تبارك وتعالى ندمًا" [38] ، فنلحظ تأكيدًا من خلال الآية التي ترمي إلى التعلق بالدنيا وبهرجها، ونبه الخليفة لسوء العواقب إن استمر بعمله، فكان حضور الآية مدعمًا لفكرته. وفي خطبة وجهها للخليفة يؤنبه، ويعظه، ويقرعه على إسرافه في عمارة مدينة الزهراء، فبدأ أول خطبته بقوله تعالى:" أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ* وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ* وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ* فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ* وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ* أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ* وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ"[39]، ووصل ذلك بكلام جزل وقول فصل"[40]، فقد قرن بين بناء الناصر لمدينة الزهراء وقد أسرف فيه بالملوك الذين كانوا يبنون الصروح العالية غير آبيهن بسخط الله؛ فجاءت المقارنة للتقريع والتوبيخ، وفي مجادلة أوردها ابن خاقان لأبي عمر الجياني في مجلس قضاء، حيث ردَّ على القاضي حين منعه من الكلام بصوت مرتفع: "مهلًا يا قاضٍ، أمن الُخدّرات أنا فأخفض صوتي وأستر يدي، وأغطي معصمي لديك؟ أم من الأنبياء أنت فلا يجهر بالقول عندك؟ وذلك لم يجعل الله إلاّ لرسوله – صلى الله عليه وسلم – لقوله تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ"[41]... وقد ذكر الله أن النفوس تجادل في يوم القيامة في موقف الهول... فقال تعالى: " يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ" [42] إلى قوله تعالى: (وهم لا يظلمون)، لقد تعديت طورك وعلوت في منزلتك، وإنما البيان بعبارة اللسان، وبالنطق يستبين الحق من الباطل ولا بد في الخصام من إفصاح الكلام، وقام وانصرف فبهت القاضي ولم يُحِرْ جوابًا"[43] . نلحظ هنا دقة اختيار الآيات المناسبة لكلام أبي عمر الجياني في إقناع القاضي بوجهة نظره، وفي إحداث تأثير نفسي وفي الرد على القاضي، وحسن التخلص، وذكر ابن خاقان فصلًا للأديب أبي عامر بن عقال يصف فيه البحر يوم نزول الأمير إبراهيم أمير المسلمين من مرسى جزيرة طريف، فقال:" كان جوازه أيده الله تعالى من مرسى جزيرة طريف على بحر ساكن، قد ذلَّ بعد استصعابه وسهل بعد أن رأى الشامخ

---

[35] النور، آية 55.
[36] مرجع سابق، ص242–243 .
[37] الزخرف، آية33.
[38] المرجع نفسه، ص258–259 .
[39] الشعراء، آية128 – 135.
[40] المرجع نفسه، ص246 .
[41] الحجرات، آية 2.
[42] النحل، آية111.
[43] مرجع سابق، ص 333–334 .

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.01

من هضابه، وصار حيه ميتًا وهذره صمتًا، وجباله لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا" [44]، فالشاهد أن أبا عامر بن عقال قد أشار إلى صورة الجبال يوم القيامة عندما تحدث رب العزة عن حالها، في وصف حال البحر الذي اجتازه الأمير من خلال قوله تعالى: "وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الجِبالِ فَقُلْ يَنْسِفُها ربّي نَسْفًا، فَيَذَرُها قاعًا صَفْصَفًا، لا تَرى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا"[45] ، فجاءت الصورة الفنية واضحة المعالم في وصف حال البحر الهادئ، وقيل في العوج إنه الوادي، والصدع، والميل، أما الأمت فهو الرابية، والأكمة، الأثر، والجذب، والانثناء للمكان الغليظ في الفضاء والجبل[46]، وقد اختار عددًا من الألفاظ القرآنية التي تصف حال البحر، التي تؤثر في نفس المتلقي، فقال: عن هدوئه ليس فيه (عوج[47]، وأمتا [48]) فجاءت هذه الألفاظ؛ لتعبر عن الحال التي سار عليها الأمير، وفي ترجمة لأبي عمر الباجي ذكر له خطبة يصف بها المطر بعد قحط، فأورد آية تؤيد خطبته وتدعم رأيه فقال:"إن لله تعالى قضايا واقعة بالعدل، وعطايا جامعة للفضل، ومنحًا يبسطها إذا شاء ترفيهًا وإنعامًا، ويقبضها إذا أراد تنبيهًا وإلهامًا، ويجعلها لقوم صلاحًا وخيرًا على الآخرين فسادًا وضيرًا (وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحته وهو الولي الحميد"[49] ' فكان حضور هذه الآية للتأثير في نفس السامعين ليؤوبوا إلى الله، وفي الآية الكريمة وردت كلمة الغيث، وهي مخالفة لمعنى كلمة المطر؛ لأن "اللفظ القرآني المختار للمطر في هذه المناسبة الغيث يلقي ظل الغوث، والنجدة، وتلبية المضطر في الضيق والكربة، كما أن تعبيره عن آثار الغيث (وينشر رحمته) يلقي ظلال النداوة، والخضرة، والرجاء والفرح التي تنشأ فعلًا عن تفتح النبات في الأرض وارتقاب الثمار، وما من مشهد يريح الحس والأعصاب ويندي القلب والمشاعر كمشهد الغيث بعد الجفاف، وما من مشهد ينفض هموم القلب وتعب النفس كمشهد الأرض تتفتح بالنبت بعد الغيث وتنتشي بالخضرة بعد الموات " [50] ' في ترجمة لابن أبي الخصال أورد ابن خاقان عنه اعتذارًا إلى أبي الحسين بن السراج يتنصل فيه من مقامة قرطبية كان أبو الحسين قد نقم عليه بسببها فقال:" أطال الله بقاء الوزير الأستاذ الأجل ملاذي ومفزعي، ومشعري المقدس – أيده الله – إلى الحسنى وفاز من رضاه بالحظ الأسنى فله ما تمنى (وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم) (ومن أتى الله بقلب سليم)" [51] ففي هذا النص آيات تدل على تدعيم موقف ابن أبي الخصال للخروج من هذا المأزق عبر تودده لأبي الحسين بن السراج، فأورد هاتين الآيتين لتكونا دافعًا قويًا لموقفه، ويتابع ابن أبي الخصال دعواه في التنصل من هذه التهمة بقوله:"هيهات يدل على الفجر سناه ويعرب عن الشجر جناه ويفضح الشناشن أخزم وينسب الحكم أكثم وماهو مطاع ثَمَّ أمين) ولا أنا على الغيب بضنين" [52] فابن أبي الخصال لن يكون متهما في أن يؤدي ما ليس من فعله ولا قوله، كما أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ليس متهما أن يؤدي ما لم يؤمر به [53] ' فمن خلال هذا

---

[44] المرجع نفسه، ص 352 –353 .

[45] طه، آية 105 – 107.

[46] مرجع سابق، ج3، ص426 .

[47] العوج: يقال فيما يدرك بالبصر سهلًا كالخشب المنتصب ونحوه ، وقال فيما يدرك بالفكر والبصيرة كما يكون في أرض بسيط يعرف تفاوته بالبصيرة كالدين والمعاش، وقال تعالى: (قرآنا عربيا غير ذي عوج – ولم يجعل له عوجا) (والذين يصدون عن سبيل الله يبغونها عوجًا)، الأصفهاني، الحسين بن محمد، (ت502هـ – 1108م)، **المفردات في غريب القرآن**، 2ج، تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، (د . ط)، مكتبة نزار مصطفى الباز، (د . ت)، ج2، ص456 .

[48] –الأمت: المكان المرتفع ، والأمت: العوج، ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، (ت711هـ – 1311م)، **لسان العرب**، (د .ط)، 15مجلد، دار صادر، بيروت، (د . ت)، ج2، ص5 .

[49] مرجع سابق، ص 302–303 .

[50] قطب، سيد، (ت 1966م)، **في ظلال القرآن**، ط32، 6 مجلدات، دار الشروق، بيروت، 2003م، ج25، ص3157– 3158 .

[51] مرجع سابق، ج1– 2، ص532–533 .

[52] المرجع نفسه، ج1– 2، ص535 –536 .

[53] ينظر، مرجع سابق ج6، ص219 .

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

التنسيق الذي جاء به ابن أبي الخصال أثر في نفس ابن السراج لتهدئة خاطره اتجاهه فجاء بنص هذه الآيات متتالية، وهو أسلوب نفسي مؤثر في الغير. وفي ترجمة لابن حمدين ذكر فيها قصة ابن الحاج الذي خرج وتمرد على السلطان، كيف أنه بعدما فشل في مسعاه تتصل ممن ناصروه وأصبح عدوًا لهم فقال:"وألبسهم ما شاء ذمًا من الناس وملامًا فدجت مطالع شموسهم وخلت مواضع تدريسهم، فأصبحوا ملتحفين بالمهانة متشوفين إلى الإهانة، يروعهم الرواح والغدو (يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو)"[54] فأصبح حالهم كحال المنافقين في المدينة[55]، يترقبون القتل فهم دائمًا وجلون خائفون من التنكيل بهم، فكانت الآيات داعمة لموضوع الخطبة، وفي ترجمة لابن عياض بيّن فيها قدرته على نيل المعاني، وسعيه إلى العلوم قال ابن خاقان: "وأقدم على ما أحجم عنه سواه ونكل، فتحلّت به للعلوم نحور، وتجلت له منها حور (كأنهن الياقوت والمرجان)(لم يطمثهن إنس ولا جان)، قد ألحفته الأصالة"[56]، نلحظ أن ابن خاقان قد أكّد فكرته من خلال الآيات في وصف العلوم التي تناولها ابن عياض كأنهن الحور العين في الجنة، وحرك التصوير من تصوير ذهني وهو الكلمات إلى تصوير حسي وهو الياقوت والمرجان .

المحور الثالث

توظيف المعنى القرآني

يكون اختيار الكلمة في المكان المناسب ذا تأثير نفسي في نفس المتلقي، إذ تكون الدقة في الوضع حيث لا يستغنى عنها، والدقة في الاختيار حيث لا تستبدل بها لفظة أخرى، والدقة في الوصف حيث الوصف الحسي لحياتنا البشرية، والدقة في أداء المعنى، والدقة في التنسيق بسبب اجتماعها مع غيرها من الكلمات في الجملة [57]، فكان استخدام ابن خاقان لبعض ألفاظ القرآن الكريم في ترجمته للشخصيات حاضرًا لما فيها من البراعة، والحسن في (الوضع، والاختيار، والوصف، وأداء المعنى، والتناسق)، ففي ترجمة ابن خاقان للمعتمد بن عباد قال فيه بعد أن ذهب ملكه: "فأصبح خائضًا تذروه الرياح"[58]، وفي ذلك إشارة للآية التي تقول: " وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا" [59]، فقد استخدم ابن خاقان ما دلت عليه الآية لتدلل على الوضع الذي آل إليه ابن المعتضد، إذ صور ذهاب ملك المعتمد بالعمل الذي لا قيمة له عند الله، ففي إيراده لكلمات لجملة(تذروه الرياح) وصف لنهاية حكم آل عباد في نفس المتلقي، وقال أيضًا يصف نزول الراضي بن المعتمد عن أحد الحصون عن ملكه: "فحمل على مخاطبته لينزل عن صياصيه" [60]،

[54] مرجع سابق، ج3 –4، ص611 .
[55] مرجع سابق، ج6، ص15 .
[56] مرجع سابق، ج 3 –4 ، ص683 .
[57] ينظر، مرجع سابق، ص253 –256 .
[58] مرجع سابق، ج 1–2 ، ص53 .
[59] الكهف، آية45.
[60] المرجع نفسه، ج 1–2 ، ص85 .

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.01

فالشاهد في كلمة صياصي[61] وهي بمعنى الحصون المنيعة، فقد أكّد ابن خاقان معنى كلمة صياصي من خلال قوله تعالى: " وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا"[62] لوصف حال الراضي في مناعته في حصنه ضد المرابطين، وقد خاطبه والده المعتمد لينزل عن الحصن بعد أن أخذ ميثاق الأمان منهم، وفي وصفٍ لأهل فاس الذين عاثوا فيها فسادًا قال: "وتلقبوا بالإمارة، واركبوا السوء نفوسهم الأمارة"[63]، فقد أشار لفكرته من خلال قوله تعالى في وصف النفس الأمارة بالسوء: "وما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النفْسَ لَأَمّارَةٌ بالسوءِ إلاّ ما رَحِمَ رَبّي إِنَّ رَبّي غَفورٌ رَحيم"[64]، فكان توظيف الآية مدعّمًا لوصف حال من اعتدى، وعاث فسادًا في مدينة فاس، فكان استخدام جملة (إن النفس لأمارة بالسوء) مؤثرة في نفس المتلقي، وفي نفوس أهل فاس؛ ليرجعوا عن غيهم، ولما خرج ابن زيدون هاربًا وأقام في قرطبة متواريًا خاطب ولادة واستشفع أبا بكر بن مسلم بن أحمد بأبيات شعر، قال :

فررتُ فإن قالوا الفرار إرابةٌ فقد فرّ موسى حين همّ به القبط[65]

فهنا إشارة إلى فرار سيدنا موسى – عليه السلام – عندما تآمر القوم على قتله، ففي قوله تعالى تأكيد لذلك: "وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا موسى إنَّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنّي لك من الناصحين"[66] وأورد ابن خاقان بيتًا تضمن معنى تقلب الزمان وذهاب السلطان، فقال:

لا تأمنن من الزمان تقلبًا إن الزمان بأهله يتقلب[67]

وقد استوحى هذا المعنى من قوله تعالى في أن الله يعطي الملك من يشاء وقت يشاء، وينزعه كذلك بالمثل، حين قال تعالى: " قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ"[68]، ودعّم ابن خاقان أفكاره وترجماته لكثير من الشخصيات من خلال القصص القرآني، إذ تُعد هذه القصص أسلوب تربية ومنهج تقويم وتوجيه، واستخراج الدروس منها والعبر" ومن فوائد القصة أنها تلاحق القضايا الصغيرة في التاريخ، ويكون تأمل الأحداث فيها هو المرشد " [69]، وتحمل القصة القرآنية فوائد في فهم من هو أمامك فهي "تساعد على فهمٍ متكاملٍ للنفس الإنسانية في أبعادها الجسمية، والإدراكية والانفعالية، إذ هي تارةً تركز على الجانب النفسي، وتارةً تركز على الجانب الإدراكي، وكثيرًا ما تسلط الضوء على خفايا النفوس، وتبرز ما جبلت عليه"[70]، إذ أورد ترجمة لأبي عبد الرحمن محمد بن الطاهر ذاكرًا هروبه من المعتمد وجيشه، ولجوئه إلى صاحب بلنسية أبي بكر بن عبد العزيز، ومنها إلى شاطبة بعد احتلال الصليبيين لها"... ووافى شاطبة

---

[61] صيص: (من صياصيهم) أي حصونهم، وكل ما يتحصن به يقال له صيصة، وبهذا النظر قيل لقرن البقر صيصة، وللشوكة التي يقاتل بها الديك صيصة، مرجع سابق، ج2، ص380 .

[62] الأحزاب، آية 26.

[63] مرجع سابق، ج 1-2 ، ص100 .

[64] يوسف، آية 53.

[65] المرجع نفسه، ج 1-2 ، ص244 .

[66] القصص، آية 20.

[67] مرجع سابق، ص164 .

[68] آل عمران، آية26.

[69] مرجع سابق، ص477 .

[70] المرجع نفسه، ص480 .

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

خاليًا إلا من الوجد، عاريًا إلا من المجد قد انتشـــى من الذل، فأوى إلى الظل"[71]، فالشـــاهد في قوله: (فآوى إلى الظل)، إذ عرّف بشخصيته من خلال قصة سيدنا موسى – عليه السلام – وقد سقى لبنات شعيب، ثم آوى إلى الظل ، فكان المعنى حاضـــرًا من آيات القرآن الكريم ودلل بها في قصـــة ابن طاهر، فصـــور حال ابن طاهر المضـــطربة الهاربة من الموت بحال سيدنا موسـى – عليه السـلام– عندما هرب من فرعون وملأه، بقوله تعالى: " فَسَـقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ" [72]، وترجم لشـــخصـــياته كذلك من خلال قصـــة ســـيدنا إبراهيم – عليه السلام – في حادثة حرقه بعد أن كسر الأصنام؛ ليوظفها من خلال المعنى وليربطها حين خاطبه ابن عبدون قائلًا: "... وهل تجس إلا ضـلوعًا من سـاكنيها قفارًا أو دموعًا من التأسـف على التخلف جرارًا لا تسـتعر إلا بالتسليم لسبقك والتعظيم لحقك إنصـارًا بأدنى لمحة من نثير منك أو نظيم يرد من الإفهام والأوهام كل لفحة ولو كانت من نار إبراهيم" [73]، فنرى أنه أشـار إلى الحادثة من قوله تعالى: " قُلنا يا نارُ كُوني بَرْدًا وَسَـلامًا عَلى إبْراهيمَ" [74]، وفي موطن آخر استخدم ابن خاقان التلميح في المعنى القرآني من خلال الرسالة التي خاطب بها ابن زيدون صديقه أبا الوليد الجهوري، إذ اســتوحى أكثر من قصـــة قرآنية في قوله: "وما أراني إلا لو أني أمرت بالســـجود لآدم فأبيت واسـتكبرت... فتعاطيت فعقرت... وعكفت على العجل، واعتديت في السـبت، وشـربت من النهر الذي ابتلى به جنود طالوت، وقدت الفيل لأبرهة، وجئت بالإفك على عائشـة"[75]، وهذا مسـتمد من قوله تعالى: "وإِذْ قُلنا للمَلائكةِ اسـجُدوا لآدَمَ فَسَـجدوا إلاّ إبليسَ أَبَى واسْـتَكْبَرَ وكانَ منَ الكافرينَ"[76]، ومن قوله تعالى: "فنادَوْا صَـاحبهم فَتَعاطى فَعَقَرَ" [77]، ومن قصـة قوم موسـى في عبادتهم للعجل بقوله تعالى: " وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَـى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَـدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ" [78] ، ووظف كذلك المعنى المأخوذ من قصـة أصـحاب الســبت – اليهود – في قوله تعالى: " وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّـبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِـئِينَ" [79]، وأتبعها بقصـــة طالوت مع جنوده الذين عصـــوه وشـــربوا من النهر إلا قليل منهم، بقوله تعالى: " فَلَمَّا فَصَـــلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَـرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَـرِبُواْ مِنْـهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّـذِينَ آمَنُواْ مَعَـهُ قَـالُواْ لاَ طَـاقَـةَ لَنَـا الْيَوْمَ بِجَـالُوتَ وَجُنُودِهِ قَـالَ الَّـذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّـابِرِينَ" [80] ، وتناوله لمعنى قصـة أصـحاب الفيل وقائدهم أبرهة الأشرم في قوله تعالى: " ألم تر كيف فعل ربك بأصـحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضـليل، وأرسـل عليم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سـجيل، فجعلهم كعصـف مأكول" [81]، وأشـار ابن زيدون لحادثة الإفك من خلال قوله تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْـبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ

---

[71] مرجع سابق، ج 1-2، ص171-172 .
[72] القصص، آية 24.
[73] المرجع نفسه، ج 1-2، ص426 .
[74] الأنبياء، 69 .
[75] المرجع نفسه، ج 1-2، ص212- 213 .
[76] البقرة، آية 34 .
[77] القمر ، آية29 .
[78] الأعراف، آية 148 .
[79] البقرة، آية 65
[80] البقرة، آية 249.
[81] الفيل، آية 1 – 5 .

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.01

الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ"[82]، فالملاحظ أن ابن زيدون أكّدَ قضـيته من خلال الآيات الكريمة للدفاع عن نفسه ، وإبعاد التهمة عنه، فهو لم يرتكب ذنبًا حتى يسجن، وقد أورد كل هذه القصص دليلًا على صدقه وبراءته، وأورد ابن خاقان رسالة وجهها الوزير الفقيه القاضـي أبو عبد الله بن اللوشـي إلى صـديقه الوزير أبي محمد عبد الحق بن عطية يذكر فيها اشـــتياقه، وبعده عنه، فقال:" أيم الله يا ســـيدي الأعلى لكدّر بعدك المحيا، ونغص فراقك الدنيا، واقشـعرت بعدك النعمى، وأصـبح طرف لا أراك به أعمى، إلى أن وافى من (فلان) راجلك بشـيرا فاغتديت – لعمر الله – جَدِلًا وارتددت بصـيرًا"[83]، فالشـاهد في قوله :(وارتددت بصـيرًا)، إذ استوحى أبو عبد الله اللوشـي المعنى من قصـة يوسـف –عليه السـلام– عندما أعطى القميص لأخوته ليلقوه على وجه أبيهم النبي يعقوب –عليه السـلام– ليرتد بصـيرًا بعد أن ذهب بصـره حزنًا على فراق سـيدنا يوسـف –عليه السـلام– من خلال قوله تعالى: "فَلَمّا أَنْ جاءَ البَشـيرُ ألقاهُ على وَجْهِهِ فارتَدَّ بَصـيرًا قالَ ألَمْ أقُلْ لَكُم إنّي أعلمُ ما لا تَعلَمون"[84] ، فنلحظ أن اللوشـي في الإشـارة لقصـة يوسـف – عليه السـلام– أبرز العاطفة الإنسـانية، وأظهر عنصـر التشـويق، ومن القصـص التي وظفها ابن خاقان قصـة هاروت وماروت، فجاء في رسـالة ابن عبدون إليه يمدحه ويثني عليه بها على كتاباته وأسـلوبه وفنه النثري "وقد تولى إحسـاني وأرجحن إحسـانك بعينين من النظم والنثر، نجلاوين لو رقرقهما لنوء الثريا لتهلل برقها واسـتهل ودقها، وفصـلين من دُرّ وياقوت، بل أصـلين من سـحر هاروت وماروت" [85]، فالشـاهد في إيراده قصـة هاروت وماروت، إذ وظف ابن عبدون هذه القصـــة التي قيلت في الســـحر على أنه شـــر في معنى آخر ألا هو المدح من خلال الثناء على ابن خاقان في أســـلوبه الكتابي، وبلاغته، وبيانه، على أنها ســـحر، من خلال قوله تعالى: " وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّـــيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُـلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُـلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّـيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّـحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ..."[86]، فصـــور البيان الذي تحلى به ابن خاقان بالسـحر الذي تعلمه هاروت وماروت، ونلحظ التوظيف الديني عبر رسـالة بعث بها أبو بكر إلى المنصـور بن حماد عندما اسـتلهم المعنى من قوله تعالى: " وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُـجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَـــنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّـــجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّـــيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَـــاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ"[87] ، فجاء بها ليؤثر على المنصـور بن حماد ويقنعه بوجهة نظره ، فجاء في نص الرسـالة: "ألم نكن عندما نزغ الشـيطان بينك وبين فلان، وتفاقم الشـنآن قد توفرنا على ما كان بالحالة من إقلاق"، فصـور حال الفرقة بين الصـاحبين بسـبب الشـيطان بحال يوسـف – عليه السـلام – وإخوته حين فرق الشـيطان بينهم، وأفاد أبو بكر من اللفظ القرآني حين اسـتخدامه للفظة (نزغ) فلم يقل باعد أو فرّق، وهذا فيه دراية نفســية في نفس المتلقي لقيمة اللفظ القرآني، فقال: نزغ الشــيطان[88]، والنزوغ أشــد من التفريق، وفي رســـالة أخرى لابن الدباغ وهي في العتاب قال: "وردني لك كتاب لطيف الحجم خلته للطفه ســـحاة وتوهمته من خفته هباة، وفضـضـته عن أسـطر فيها سـواد، لم يُتحصـل لي منه مسـتفاد، فتعوذت برب الفلق من شـر

[82] النور، آية11.

[83] المرجع السابق، ج 1-2، ص681 .

[84] يوسف، آية، 96 .

[85] المرجع السابق، ج 1-2، ص424 -425 .

[86] البقرة، آية 102 .

[87] يوسف، آية100 .

[88] نزغ: النزغ: الدخول في أمر لإفساده، مرجع سابق، ج2، ص631 .

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

ذلك الغســـق"[89])، نلحظ أن ابن الدباغ قد تعوذ من الكتاب الذي قرأه لما يحمله من كلام غير مفيد، فأســـقط معنى الآية على الكتاب الذي وصـله من صـديقه الذي يحمل في طياته الشـر والضـر، وفي موقف جهادي يورد ابن خاقان رسـالة من أبي عبد الرحمن بن طاهر يخبر بها الوزير أبا بكر عبد الملك بن عبد العزيز بسـقوط أحد معاقل الإسـلام في قونيكة، فقال: "وأرجو أن يتلافى جميعها من نظر أمير المســـلمين –أيده الله– ما يعيدها فيملأها خيلًا ورجالًا، وينفر بهم خفافًا وثقالًا"[90]، وقد استمد هذا المعنى في بث روح الجهاد واستثارة نفوس الناس ضـد الصـليبين من قوله تعالى: " انفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ" [91]

الخاتمة

لم يزل العلماء والأدباء والكتاب ينهلون من آيات الذكر الحكيم التي لا زالت وستبقى تقدم ثقافة عالية المستوى، فلآيات الذكر الحكيم تأثير كبير وواضح في كتابات الأدباء في الشعر والنثر، منهم الكاتب والأديب ابن خاقان الذي لجأ إلى آيات القرآن الكريم؛ للتعريف بشخصيات سياسية، ودينية، وأخرى أدبية، في كتابيه (قلائد العقيان، ومطمح الأنفس)، إذ أبانت دراسة الباحث مدى ثقافة الأديب والكاتب الأندلسي، حيث درس مصادر ثقافة الأديب ومنابعها، وذاك الكاتب الأندلسي، التي تشكلت من الامتزاج السكاني المكون من المسلمين، والمسيحيين، واليهود، والبربر، ومن جاورهم من ممالك مثل قشتالة، وأرغون، ولما لطبيعة الأندلس من تأثير في النفس والعقل، ولتأثر الأندلسيين بالمشرق وعلمائه وعلومهم كالجاحظ، وعبد الحميد الكاتب، وابن المقفع، وابن العميد، والاستقرار السياسي والعسكري، وما وصلت إليه الأندلس من نهوض وعمران، وبيّن الباحث ما قدمه ابن خاقان من خلال التراجم التي قدمها، ومن خلال المواضيع التي ناقشها تأثره بالقرآن الكريم، فكان تأكيد أفكاره، والترجمة لكثير من الشخصيات من خلال دعمها بآيات القرآن الكريم المباشرة، وغير المباشرة، أو من خلال المعنى المستسقى منها، مثل(الدعوة للجهاد، وسقوط الممالك، والتحذير من العدو، والمراسلات التي كانت تدور بين الخليفة وولاته ووزرائه وملوك الدول المجاورة، والخارجين على أمر الخليفة، والعتاب والشكوى، والمصالحة)، وقد قام الباحث من خلال دراسته لموضوع الأثر الديني في النثر الأندلسي في مختارات الفتح ابن خاقان بالبحث والتقصي عن مواطن تأثر ابن خاقان بالموروث الديني في كتابيه (قلائد العقيان ومطمح الأنفس) من خلال ترجمته للشخصيات على مختلف طبقاتها، إذ اقتبس أجزاء من الآيات الكريمة في مواضع، واقتبس نصوصًا كاملة للآيات في مواضع أخرى، ولمّح وحوّر لمعنى الآيات في مواضع ثانية، مؤكدًا إيّاها في الأحداث التي واكبت الشخصية المترجم لها، شارحًا لحياتها، ومعززًا لرأيها، ومثبتًا لموقفها، ووصل الباحث في دراسته أنَّ ابن خاقان استطاع من خلال استخدام الآيات القرآنية في جزئها أو في كلها، أو في معناها؛ التعبير عن الأحوال والأحداث والمواقف التي حدثت للشخصيات التي ترجم لها؛ فوصف مواقف الموت، وعبّر عن تبدّل وتغيّر الزمان على أصحابه، ووصف كذلك لمن اجتهد في مجال العلم ونبغ فيه، وأورد كذلك على لسان من ترجم لهم خطبًا ورسائل، وشعرًا استطاع أصحابها دعم أفكارهم عبر آيات القرآن الكريم للتعبير عن حالهم، فمنهم من عبّر عن مآسيه، ومنهم من عبّر عن انتصاراته، أو انتصار الخليفة، ومنهم من عبّر عن الشكوى والعتاب، أو النصح والإرشاد والتقريع في مواطن ثانية من العلماء والفقهاء لولاة الأمر، ونبه آخرون على خطورة التنازع والردة والخروج على السلطان، وشددوا على ضرورة

[89] مرجع سابق، ج 1–2، ص317–318 .
[90] المرجع نفسه، ج 1–2، ص194 .
[91] التوبة، آية 41 .

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021

DOI: 10.15849/ZJJHSS.210730.01

التمسك بالجماعة والمحافظة على وحدة الأمة الإسلامية وترك التباغض والتضاغن، ومنهم من تضرع لله في مواقف الحاجة، ودعّم آخرون أفكارهم ومواضيعهم، مثل المدح، والتقرب من أصحاب السلطة، واستخدمه آخرون لوصف الحروب والمعارك معززين كل ذلك بآيات الذكر الحكيم، واستخدم ابن خاقان القصص القرآني بشكل موضوعي، ومؤثر، مؤكدًا ذلك؛ للتعبير عن حال الشخصيات التي ترجم لها وللمواقف التي تعرضوا لها وما وصلوا إليه من عاقبة .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- أصفهاني، الحسين بن محمد، (ت502هـ – 1108م)، **المفردات في غريب القرآن**، 2ج، تحقيق مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، (د.ط)، مكتبة نزار مصطفى الباز، (د.ت)
- ابن بسام الشنتريني، علي بن بسام، (ت542)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، 4ج تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، (د. ط)، بيروت، 1997م
- جيوسي، عبد الله محمد(ت2011م)، **التعبير القرآني والدلالة النفسية**، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، ط1، دمشق، 2006
- ابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي، (ت 529هـ):

– قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، 2ج، تحقيق حسين يوسف خريويش، مكتبة المنار، ط1، الزرقاء، الأردن، 1989م

– مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق محمد علي شوابكة، دار عمار ومؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1983م

- خالدي، صلاح عبد الفتاح، **البيان في إعجاز القرآن**، دار عمار، ط3، عمان، الأردن، 1992م
- سلام، محمد زغلول،(ت2013م)، **أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع الهجري**، مكتبة الشباب، ط1، المنيرة، (د. ت)
- ضيف، شوقي،(ت2005م)، **تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات)**، دار المعارف، (د.ط)، (د. ت)
- عبد النور، جبور، **المعجم الأدبي**، دار العلم للملايين، ط2، بيروت، 1984م
- فروخ، عمر،**(ت1987م)**، **تاريخ الأدب العربي (الأدب في المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى آخر عصر ملوك الطوائف)**، 6أجزاء، دار العلم للملايين، ط2، بيروت، 1984م
- قطب، سيد (ت1966م):

– **التصوير الفني في القرآن**، دار الشروق، ط16، القاهرة، 2002م

– **في ظلال القرآن**، 6 مجلدات، دار الشروق، ط32، بيروت، 2003م

- قيسي، فلاح فايز عبد النبي، **أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري**، دار البشير، ط1، عمان، الأردن، (د. ت)
- مطلوب، أحمد(ت2018م)، **معجم النقد العربي القديم**، 2ج، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، 1989م
- مقري، أحمد بن محمد، (ت 1041هـ – 1631م)، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، 8ج، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، (د. ط)، بيروت، 1968م

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنيّة 2021

•ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، (ت711هـــ – 1311م)، لسان العرب،15مجلد، دار صادر، (د.ط)، بيروت، (د . ت)

•موردي، علي بن محمد بن حبيب، (ت450هـــ)، **النكت والعيون تفسير الموردي**، 6ج، راجعه وعلق عليه السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية ومؤسسة الكتب الثقافية، (د. ط)، بيروت، لبنان، (د. ت)

©جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي/ جامعة الزيتونة الأردنية 2021